مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center For Qur'anic Studies
@Tafsircenter

ثلاث محاضرات حول القرآن

(٢): لغة القرآن،

هل العربية لغة مقدسة؟

www.tafsir.net

شتيفان فيلد Stefan wild

ترجمة : حسام صبري

مقدمة:

هذه هي المحاضرة الثانية من المحاضرات الثلاثة التي ألقاها المستشرق الألماني شتيفان فيلد في مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة هارفرد في عام ٢٠١٠، ويتناول فيها فيلد «القرآن واللغة العربية»، يعتبر فيلد أنَّ حضور القرآن في الآونة الأخيرة في ألمانيا بل وفي عمق أوروبا هو حضورٌ يتّسم بالقوة الشديدة، فالقرآن هو أكثر الكتب حضورًا وجاذبية في ألمانيا بعد الإنجيل، ويشكِّل أحد أهم موضوعات النقاش على مختلف المستويات الأكاديمية والسياسية وحتى النقاشات العامة، هذا الحضور شديد القوة لجاذبية القرآن، يتزامن مع صعود «إسلاموفوبيا» تجمع بين الغضب والخوف تجاهه، تذكر فيلد بمعاداة السامية، حتى لكأن هذا التعامل الرهابي مع القرآن والإسلام لا يختلف كثيرًا وفقًا له عن تعامل الحكومة الاشتراكية الألمانية مع التلمود أيام النازي.

يحاول فيلد انطلاقًا من هذا التشخيص لواقع حضور القرآن في السياق الغربي، ما بين جاذبيته وبين ما يقابل به من خوف؛ أن يتساءل حول سرّ هذه القوة التي يحوذها النصّ القرآني، يعتبر فيلد أنَّ مركز هذه القوة يكمن في «لغة القرآن» العربية، فاللغة العربية -كما يرى فيلد- ليست مجرد وسيط للقرآن، بل هي أحد موضوعاته المركزيّة.

في هذا السياق يَعيبُ فيلد على بعض المستشرقين أمثال نولدكه، الذين اعتبروا قراءة القرآن فعلًا مملًّا، فضلًا عن هؤلاء الذين يسخرون من حديث المسلمين عن جمال القرآن والتأثير الكبير للغته، وعن «صرعى القرآن»، إنَّ هؤلاء -وفقًا

لفيلد- لا يشاركون المسلمين موقفهم اللاهوتي، كما أنهم يحكّمون معايير كتابية خاصّة على القرآن، وصحيح أنه ليس مطلوبًا منهم مشاركة المسلمين موقفهم اللاهوتي، إلا أنَّ ازدراء المسلمين بسبب تأثرهم بجمال القرآن هو سوء فَهْمٍ منهجي كما يعبر، خصوصًا أنَّ هذا الجمال للقرآن لم يعاينه فقط المسلمون العرب؛ بل كذلك العرب غير المسلمين كما يشير، بل وكذلك بعض من ترجم القرآن للغات أخرى من غير المسلمين وغير العرب.

وتأثير لغة القرآن على قارئه وسامعه لا يتوقف عند حدّ ما في هذه اللغة من «إعجاز» و«تحدي»؛ بل يمتد -وفقًا لفيلد-إلى طبيعة حضور هذه اللغة القرآنية، حيث التلاوة الشفهية للقرآن هي أحد العناصر الرئيسة لقوته وجذبه وسعة حضوره؛ فالقرآن (ظاهرة شفهيّة تتعلق بالفم والأذن)، و(السورة القرآنية ليست تقريرًا عن الوحي، بل هي بروتوكول له)، تلك السِّمة «الشفاهية» تميز القرآن عن غيره من الكتب المقدسة، مثل التوراة، وتمنحه جاذبية وحضورًا أوسع، حيث يُمكنُ لغير المبصر قراءة القرآن وحفظه على خلاف التوراة التي تشترط النظر في الكتاب أثناء القراءة.

بعد تناول لغة القرآن، والإعجاز، والتحدي، والتلاوة الشفهية؛ ينتقل فيلد في الجزء الثاني من هذه المحاضرة إلى بحث تأثير «لغة القرآن» -التي تمتلك كلّ هذه القوة- على السياسة العربية المعاصرة والأدب العربي المعاصر.

إنَّ القرآن صان اللغة العربية، وأعاد تشكيلها وأعطاها خلودًا؛ مما مكّن هذه اللغة من أن تكون أحد الأساسات التي قام عليها الفكر القومي، والذي كان رواده في كثير من الأحيان من المسيحيين العرب، كما أنَّ القرآن منح هذه اللغة أبعادًا دينية شديدة الخصوبة، استطاعت توفير أدوات أدبية شديدة الثراء لكثيرٍ من الأدباء المعاصرين يلجؤون إليها للتعبير عن أقصى الحدود البشرية الفردية والقومية.

إنَّ هذه السمات التي يذكرها فيلد للغة القرآن تدفع للسؤال عن ترجمة القرآن إلى لغات أخرى، وهل تستطيع الترجمة الاحتفاظ بكلّ هذه السمات التي ترتكز عليها قوة القرآن وجاذبيته؟ يترك فيلد الإجابة عن هذا السؤال لمحاضرته القادمة، والأخيرة والمعنونة «القرآن اليوم، لماذا نترجم ما لا يقبل الترجمة؟».

المحاضرة

تشتمل هذه المحاضرة على مقدمة يسيرة، وسوف أتناول بعد المقدمة أربعة موضوعات؛ **الموضوع الأول**: عن العلاقة بين القرآن واللغة العربية، **والموضوع الثاني**: عن دور القرآن في تاريخ اللغة العربية، يليه **الموضوع الثالث**: عن الأدب العربي المعاصر كمرآة للقرآن، ومدى تأثره به، وختامًا **الموضوع الرابع**: عن القرآن بصفته أدبًا عالميًّا.

صدّر عدد الكريسماس من «ديرشبيجل» الأسبوعية في ديسمبر ٢٠٠٧ غلافه بهذا العنوان: «القرآن: أقوى كتاب في العالم»، (Der Koran - Das mächtigste Buch der Welt). عادة ما تلتقط وسائل الإعلام من أمثال: «دير شبيجل» الطابع العام وروح العصر، ويكون لديها ثمَّة توجه إعلامي يشير إلى الأعمال الأكاديمية التي تتميز بالجدية رغم السير الوئيد.

لا شك أنَّ هذا النوع من التعميمات الكبيرة ينبغي أن يُقابل بقدر من التحفظ، إلا أن مفهوم «أقوى كتاب في العالم» يعكس هذا الانطباع المتزايد بين كثير من المراقبين في ألمانيا، وربما في قلب أوروبا، سواء بين المسلمين أم غيرهم. فالإسلام مع كتابه المقدس القرآن قد يكون أكثر الأديان التي يدور الكلام حولها هذه الأيام، وهو بوجه ما أقوى الأديان وأكثرها ظهورًا في أوروبا، إلا أنَّ «القوة» من التصنيفات الغامضة؛ فالقرآن كتابُ واحدٍ من الأديان التي تتسم بالقوة، وتعود على الناس بالنفع بصورة ما، وهو يجذب انتباه الجمهور؛ لأنه يتنافس مع غيره من الكتب المقدسة، ودائمًا ما تنافست الكتب المقدسة المختلفة للاعتراف بأنها الحق، لكن يبدو أنَّ من وراء هذا التنافس لحيازة الحقيقة منافسة أخرى لحيازة القوة، وفي الوقت ذاته بدأت تنحسر المسيحية المنظمة التي تأسست في أوروبا،

كما بدأت تتقلص وتفقد تأثيرها تحت طرقات العلمانية والتهميش بطرقٍ شتى، ويبدو أنَّ انحسار الكنائس المسيحية لا يمكن إيقافه، ليس في ألمانيا فحسب؛ بل في أنحاء أوروبا. وتعدُّ خسارة المسيحية المؤسسية في البقعة الجغرافية التي مثلت حتى عام ١٩٨٩ جمهورية ألمانيا الديموقراطية خسارة فادحة، ويمكن اعتبارها انتصارًا متأخرًا لاشتراكية الدولة.

القرآن هو كتاب المسلمين المقدس، ويتبوأ الآن المنزلة الثانية في ألمانيا بعد الإنجيل، وكما أنَّ المساجد تُبنى إلى جوار الكنائس ومعابد اليهود؛ فإنَّ المآذن ترتفع إلى جوار أبراج الكنائس. وللإسلام حضور عام في أنحاء أوروبا، حيث ينتشر المسلمون، ويتمثل هذا الحضور في رمزية الحجاب الظاهرة. وبعض الفنادق الأوروبية التي تستضيف نزلاء أثرياء من الخليج تستبدل خِلسة القرآن بالإنجيل على الطاولات بجوار الأسرّة، ويوجد في ألمانيا وحدها الآن أكثر من عشرين ترجمة مختلفة للقرآن باللغة الألمانية، كما أنَّ الكتب المؤلفة عن القرآن كثيرة، ونسخ القرآن تباع وتشترى في أماكن عديدة.

ومع ذلك يلقى القرآن ازدراءً وتهميشًا وكراهية من قبل كثيرين في الدول الأوروبية، فرهاب الإسلام في أوروبا ليس ضربًا من الخيال، وهو يشتد بوجه خاصّ على الإنترنت، ويجمع رهاب الإسلام في ألمانيا بين الغضب والخوف، وكذا في هولندا والدنمارك وسويسرا وأغلب الدول الأوروبية الأخرى. ويبدو أنَّ هذا النوع من رهاب الإسلام، على الأقل من وجهة نظري، شبيهًا في تركيبه بمعاداة السامية، وقد أشار مؤخرًا مدير مركز أبحاث معاداة السامية في برلين إلى أنَّ رهاب الإسلام في ألمانيا اليوم يتعامل مع القرآن على نحو يشبه تعامل الاشتراكية القومية مع التلمود بالأمس.

يقول السياسي الهولندي جيرت ويلدرز زعيم أحد الأحزاب الهولندية المهمّة: ببساطة إنَّ القرآن بمثابة كتاب «كفاحي» (Mein Kampf) في صورته

الإسلامية، بعبارة أخرى، يقرأ كثير من غير المسلمين القرآن في أوروبا هذه الأيام على أنَّه الكتاب غير المقدس لعدوهم، ويرى كثير من العوام أن القرآن قنبلة موقوتة لا بد من نزع فتيلها.

نشر الكاتب الألماني كريستوف لكسنبرج (وهذا اسم مستعار) -الذي تكلمت عنه أمس في محاضرتي[١]-كتابًا يسعى للكشف عن «المعنى الحقيقي» للقرآن، وذلك بقراءة كثير من الآيات على أنَّها فقرات آرامية فهمت على نحو خاطئ. ومن اقتراحاته الموغلة في الغرابة إزالة الطابع الأسطوري عن الحور العين، فيرى أنَّ الحور العين اللاتي ينتظرن المؤمنين في الجنة كما ورد في القرآن؛ ما هن إلا العِنب الأبيض، وهو بهذا الرأي لا يعيد فتح جدل مسيحي قديم مناوئ للإسلام في ظلّ ما ارتآه المسيحيون من أنَّ الآخرة عند المسلمين ما هي إلا متعة جنسية فاضحة، بل يعكسُ بوعي أو بدون وعي ما يُقال من أنَّ التفجيرات الانتحارية التي يقوم بها بعض المسلمين هي ظاهرة حديثة تستند في الأساس إلى قراءة القرآن على نحو معين، وأنَّ الطريقة التي ينبغي التعامل بها مع الأزمة الحالية في العلاقة مع المسلمين تتمثلُ فحسب في تكذيب تلك القراءة.

إذا كان ثمَّة ضرورة إلى أدلّة تُثبت قوة القرآن فيكفي أن نسوق الأحداث التي كان بطلها القسيس الإنجيلي المغمور في فلوريدا، والذي أعلن عن اعتزامه حرق نسخ من القرآن في الذكرى التاسعة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر. ومعظم الذين تظاهروا في باكستان والهند وأفغانستان احتجاجًا على حرق الكتاب المحفوظ، وأقدموا على حرق الأعلام وسفك الدماء وتعريض أنفسهم للقتل لم يقرؤوا القرآن على الأرجح، إلا أنَّ هذه الحرب كانت في الأساس حرب الرموز القوية.

(١) يمكن الاطلاع على المحاضرة الأولى التي يشير إليها فيلد بعنوان «تاريخ القرآن، لماذا لا نحرز تقدمًا؟» من خلال هذا الرابط: https://bit.ly/2ONv3xq.

دعوني الآن أتناول الموضوع الأول: اللغة العربية بصفتها قضية مركزية في الوحي القرآني:

وبعيدًا عن تلك المواقف المشينة التي نبهت عليها، يبقى السؤال: **ما الذي يمثل بالضبط عنصر الجذب والقوة في القرآن؟**

هناك ثقافات قليلة في العالم تتجه إلى اللغة أكثر مما تفعل الثقافة العربية، لكن السبب الأساس في هذا التوجه الفريد عند العرب هو القرآن وأثره على اللغة العربية في الماضي والحاضر وكذا على تاريخها. وإذا كان من المقبول الحديث عن لغة مقدَّسة؛ فإني أوقن أن العربية هي أول ما يصدق بحقّها هذا القول، فليس هناك كتاب مقدّس غير القرآن استطاع بلورة ثقافة الناطقين به على نحو مشابه، وإن كان ثمَّة استثناء فهو من نصيب الكتاب العبراني.

إنَّ العلاقة بين القرآن العربي وتاريخ اللغة العربية هي موضوع هذه المحاضرة، والسؤال المتعلق بإمكان ترجمة القرآن وكيفيتها سوف يكون موضوع محاضرتي الأخيرة غدًا[١].

يعتقدُ المسلمون أنَّ القرآن هو آخر وحي نزل، وبعده لن يكلِّمَ اللهُ البشرَ إلى يوم الدين؛ لذا فإنَّ تاريخ العربية بعد نزول القرآن هو في حقيقة الحال من الناحية العقدية تاريخ اللغة التي عبرّت عن أهم ما يخصّ مستقبل الإنسانية الروحي.

توجد أفكار مماثلة في كتب ديانات التوحيد الأخرى، إلا أن ثمَّة عنصرًا فريدًا في القرآن ولغته، ويتمثل هذا العنصر في أنَّ عربية القرآن ليست هي فحسب أداته اللغوية -وسيطه اللغوي-؛ بل هي إحدى الموضوعات المهمّة في الوحي القرآني، فالقرآن -فيما أعلم- هو الكتاب الوحيد الذي تمثل واسطةُ وحيهِ مركزَ رسالتهِ، والقرآن هو ذات القرآن، ويشير دائمًا إلى نفسه، أرى أن القرآن في تاريخ الفكر

(١) ستنشر المحاضرة الثالثة قريبًا على قسم الترجمات.

الديني أكثر الكتب المقدسة إشارة إلى نفسه.

فلا جَرَمَ أنْ كان القرآن من الناحية التاريخية أول وثيقة عربية يَرِدُ فيها ذكر اللغة العربية، فهو عربي مبين «عربي مبين»، وتشير كلمة «عربي» في القرآن دائمًا إلى اللغة وليس إلى قبيلة أو منطقة، وتؤكد أجزاء مهمّة من القرآن على حقيقة أنَّ رسالة النبي محمد كانت باللغة العربية، وهذا هو الفرق الكبير بين الوحي الإسلامي وما سبقه من الوحي اليهودي والنصراني وغيرهما، وفي الوقت الذي تلقّى محمد فيه الرسالة لم يكن جلّ العرب مسلمين لكن كافة أتباع النبي كانوا عربًا.

كان الوحي المتلوّ الذي جاء به النبي يُخاطبُ أصحاب اللسان العربي ابتداءً، فقد بدأت الأمة من مجتمع قوامه أصحاب اللسان العربي، وكان الإسلام دين العرب قبل أن يصبح دينًا عالميًّا.

برزت فكرتان أساسيتان منحتا القرآن منزلة دينية فريدة مقارنة بالكتب الأخرى، تؤكد أولى الفكرتين على ما يسمَّى بـ «إعجاز القرآن». وتؤكد ثانيهما على نفي خلق القرآن، أي التأكيد على أنَّ القرآن كلام الله قديم كقدم الله، ويؤكد القرآن على أن آياته أفضل الحديث، «أحسن الحديث»، بيد أنَّه لا يتضح تمامًا ما إذا كان الجانب البلاغي فحسب هو المقصود، ثمَّة شيء واحد واضح، وهو أنَّ صوت القرآن لا مثيل له، فليست السورة القرآنية تقريرًا عن الوحي بل هي بروتوكول له، والقرآن ذاته لا يقرر تفوقه الجمالي في المقام الأول، وإنَّما أصبح الجمال البلاغي في كلمات القرآن جزءًا من إعجاز القرآن في أزمنة ما بعد النزول.

تشير آيات كثيرة إلى طبيعتها الإعجازية، إلا أنَّه لا يوجد في القرآن ما يدلّ على المفهوم الثاني المتعلق بعقيدة عدم خلق القرآن، وقد ظهرت هذه الفكرة في العقيدة الإسلامية الأولى في القرن التاسع، عندما نُقلت الخلافة إلى بغداد؛ إذ جمع العلماء بين مفهومي إعجاز القرآن وقِدَم القرآن في خيال المسلمين

الجمعي، وهذا جعل الكتب اليهودية والمسيحية أقلّ مكانة في نظر المؤمنين مقارنة بمنزلة القرآن[١].

ثمَّة عنصر متميز في الهيمنة الدينية والكتابية أرى أنه لم يُدرس دراسة كافية، ففي هذا السياق لا بد وأن تكون المنافسة بين الكتب المقدسة على حيازة الإعجاب قد لعبت دورًا جوهريًّا؛ فالجنة في القرآن أكثر جاذبية من نظيرتها في الكتاب المسيحي، وعلى النقيض من ذلك، أنواع العذاب في النار أكثر تصويرًا في القرآن وأقسى من نظائرها في المسيحية.

من المفهوم أنَّ رسالة النبي الجديد عن الآخرة قد تكون أكثر جاذبية، وأكثر رعبًا في الوقت ذاته، وقد مثّل هذان الجانبان جزءًا من الصراع للاستحواذ على عقول الفئة الجديدة من أتباع النبي، وعلى عقول من يُتوقع إيمانهم، وعلى هذا النهج أخبر القرآن عن نفسه بأنه وثيقة تهيمن على الكتب الأخرى؛ لذا كان القرآن منذ بدايته «نصًّا شديد التنافسية»، كما كان مثار جدلٍ كبيرٍ، وكان على أمة «المسلمين» الناشئة -لسنا متأكدين حقًّا من معنى كلمة «المسلمين» في ذلك

(١) نلحظ هاهنا تكرارًا لفكرة شائعة في كتابات عدد من المستشرقين، حيث يتم تصوير مكانة النصّ القرآني في المجتمع المسلم على أنها نتاج لعملية تثبيت مجتمعي أو حتى سياسي لاحقة للنصّ ذاته وخارجة عنه تمنحه قدسية ومكانة خاصة لم تكن له سابقًا، ويتم التركيز في هذا السياق على قضية إعجاز القرآن بالذات فيتم تصويرها كفكرة لاحقة على النصّ تم بها إضفاء القدسية عليه وتمييزه عن بقية الكتب كالتوراة والإنجيل، وهو ما يخالف حقيقة الأمور، حيث يتحدث القرآن ذاته -كما يقر فيلد نفسه ويسهب- عن إعجازه الذي هو فرع عن كونه كلام الله، وعن تحديه وهيمنته على الكتب السابقة؛ كونه كلام الله المحفوظ، مما يعني أن قداسة القرآن ومركزيته في المجتمع المسلم وكونه الحَكَم على غيره من الكتب راسخة منذ أول لحظة؛ كونه كلام الله الخاتم المعجز، وأن ما حدث لاحقًا هو فحسب البلورة الكلامية لهذه العقيدة، وهي البلورة التي ربما شهدت بالفعل خلافًا تفصيليًّا في طبيعة الإعجاز وقدره وموضعه وطبيعته، لكنها كلها خلافات لا تطال جوهر القول بإعجاز القرآن وكونه كلام الله المقدس، وأن هذا هو ما يمنحه المكانة المركزية في المجتمع المسلم منذ أول لحظة وأبدًا.

الوقت، ولا إذا ما كانت تشير دائمًا إلى الشيء ذاته في وثيقة القرآن[١]- كان على هذه الأمة التي جمعت بين أصحاب الخلفيات اليهودية أو النصرانية أو الوثنية أو غيرها، أن تنأى بنفسها عن الميول والقوى والنصوص الدينية والثقافية التنافسية. كما كان عليها أن تُدافع عن نفسها. ثمّة نماذج كثيرة مشهورة من القصص الديني التي ذاعت في هذه البيئة شديدة التعقيد ونُسجت في الغالب حول بطل من الأبطال، من ذلك قصة يوسف وإخوته، وقصة أصحاب الكهف «أهل الكهف»، وقصة الإسكندر الأكبر «ذي القرنين»، وغيرها كثير.

شهدت تلك الحقبة الزمنية تنافسًا بين الطوائف وإقصاءً، إلا أنَّ الطوائف تعايشت بقدر من الاحتواء، وكان على الأمة الناشئة أن تبرهن على حضورها بل وتفوقها. يسرد القرآن قصة يوسف بالتفصيل في السورة الثانية عشرة، وهذه القصة هي أكثر القصص تفصيلًا في القرآن، وفي أولى آيات السورة يوجّه ذلكم الصوت المميز خطابه إلى النبي قائلًا: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، وبالمناسبة تشير عبارة: «هذا القرآن» إلى أن كلمة «قرآن» لا تعني النص القرآني بأكمله، بل تعني دائمًا وعلى وجه التقريب جزءًا من النصّ الذي نعتبره القرآن. وتدلّ صيغة التعظيم «نحن» في قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ على معنى التوكيد في اللغة العربية، وتقول الآية إنَّ الجمهور سوف يستمع إلى قصة مشهورة، لكن هذه

(١) نلحظ هاهنا أثرًا من آثار ظهور الاتجاه التنقيحي على ساحة الدرس الاستشراقي المعاصر، حيث شكك هذا الاتجاه في هوية المسلمين الأوائل، واعتبر أن «الإسلام» هو هوية لاحقة تم صناعتها وإضفائها على جماعات دينية يهودية ومسيحية في إطار انفصال هذه الجماعات عن المسيحية البيزنطية، للتوسّع حول هذا الأمر يمكن مراجعة مادتين تم نشرها على قسم الترجمات ضمن مواد ملف الاتجاه التنقيحي: عرض لكتاب جون وانسبرو «الدراسات القرآنية، مصادر ومناهج تفسير النصوص المقدسة» كتبه كارول كيرستن، وعرض لكتاب جيرد بوين وكارل أوليج «البدايات المبهمة: بحث جديد حول أصل الإسلام وتاريخه المبكر» كتبه جيرالد هوتنج، على هذين الرابطين - https://bit.ly/2OAmxl6 https://bit.ly/2O3pf0O

القصة في نسختها القرآنية هي قصة بالعربية، وهي أحسن القصص.

تمثّل هذه الهيمنة عنصرًا قويًّا في الخطاب القرآني، وتتجلى في أبرز صورة لها في تقييم القرآن للغته هو، أي اللغة العربية. ثمّة عدد من الآيات التي أسميها «آيات التحدي»، والتي تلخص هذه الفكرة، حين كال خصومُ النبي له الاتهامات، ومنها: أنه يفتري الآيات التي يتلوها، جاءهم الردّ القرآني في سورة يونس: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]، ويبلغ التحدي ذروته في سورة الإسراء (١٧): ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

كانت هذه هي الركيزة التي على أساسها قام الاعتقاد بأنَّ القرآن لا يمكن أن يتفوق عليه حتى أبلغ البلغاء، فأصبح القرآن كلّه معجزة؛ فلم تقتصر سماته على الصدق في قصصه وأخباره، والحكمة والحزم في أوامره ونواهيه، وصدقه في أنباء المستقبل، بل كان أيضًا غاية في نقاء العربية وبلاغتها، متفوقًا على أسمى ما يمكن أن يَصِلَ إليه البشر.

كان وجود القرآن هو الدليل على الأصل الإلهي لما يتلوه محمد من آيات، واستندت هذه العقيدة كغيرها من العقائد الدينية الكثيرة إلى دائرة تفسيرية تأويلية، مفادها أنَّ القرآن كلام الله، ومن ثَمّ فهو حق؛ ولأن القرآن يقول إنه كلام الله، فهو حقًّا كلام الله.

أمَّا الجانب العقدي الآخر فيما يتعلق بالقرآن فمحوره قضية خلق القرآن، فالقرآن كلام الله غير مخلوق، بل هو قديم كقِدَم الله.

وبفضل الحماية التي توفرت للقرآن عبر هاتين العقيدتين؛ بلغ القرآن أسمى منزلة في المجتمع المسلم، فكان من المستحيل عقديًّا أن يساوي شيء نصّ القرآن

فضلًا عن أن يهيمن عليه، وكانت أي محاولة بشرية للتنافس مع القرآن يحكم عليها بالهرطقة من منظور العقيدة الإسلامية السنية «الأرثوذكسية» على الأقل.

ثمَّة آراء أُخرى مخالفة؛ إذ زعم بعض فلاسفة المسلمين في بغداد أنَّ تأليف القرآن غير معجز، وأن البشر قادرون على الإتيان بمثله أو بأفضل منه. وهؤلاء هم المعتزلة، وهي فرقة من الفلاسفة الذين دارت بينهم هذه المناقشات، ولطالما رَمَى كثيرٌ من المسلمين هؤلاء المفكرين بالهرطقة، ولا زالوا يفعلون[١].

كان لجمال القرآن وتأثيره الطاغي في أوائل الوحي المكي صدى في كثير من الروايات الإسلامية عن تلاوة القرآن، وقد أكدت هذه الجوانب المبهرة على رؤية القرآن الذاتية، فكان الناس يدخلون في الإسلام بعد أن يستمعوا إلى آية واحدة متلوّة، وهذا الوحي القرآني فوق ذلك بالغ التأثير والرهبة في النفوس، فكانت تقشعر القلوب وتبكي العيون وتسجد الجباه، وتختلج الأعضاء عند سماع التلاوات القرآنية المؤثرة، وكانوا يستحسنون من القارئ البكاء تأثرًا بقراءته.

وفي أزمنة لاحقة ظهرت بعض الكتب التي تتحدث عن «صَرْعَى القرآن»، الذين

(١) يشير فيلد هاهنا للقول بالصّرْفة الذي تبنّاه بعض أهل الاعتزال، وحاصله أن الله «رفع من أوهام العرب، وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن، بعد أن تحدّاهم الرّسول بنظمه؛ ولذلك لم نجد أحدًا طمع فيه» (الحيوان، ٤/ ٣٠٥). أي أن الإعجاز لم يكن نابعًا من ذات القرآن وإنما لأمر خارجي عنه وهو منْع الله للعرب من الإتيان بمثله. وقد تعرض العديد من العلماء لنقد هذا الرأي وبيان إشكالاته. ويُلاحظ هاهنا أمران؛ **الأول**: أن هذا القول من المعتزلة وإن نفى الإعجاز الداخلي للقرآن إلا أنه يثبت له في ذات الوقت إعجازًا من وجه آخر وهو عدم قدرة الخليقة على معارضته وعجزها عن ذلك. **الثاني**: أن المعتزلة وإن كانت طائفة لها العديد من الآراء المشكلة والتي هاجمها العديد من العلماء على مرّ التاريخ، إلا أن الزعم برميهم بالهرطقة كما يقول فيلد غير صحيح، فضلًا عن أن مصطلح الهرطقة بما يستتبعه من حمولة كنسيّة تقضي بالحرمان والإخراج عن جماعة المؤمنين وتحريم المشاركة في أداء الطقوس التي تشرف عليها الكنيسة هو أمر غير متصور في المجتمع المسلم الذي لم يعرف وجود مؤسسات تضع العقائد وتتحكم في الشأن الديني وتديره وتتوسط بين العباد وربهم.

ماتوا من تأثير القرآن المتلو عليهم. وفي هذه الحالات كان لسحر التلاوة القرآنية وقع عظيم، ولبلاغته الخطابية أثر عميم، وكان هذا للتلاوة وحدها دون الكتابة.

وهنا تظهر إحدى تناقضات الرسالة القرآنية الكثيرة التي لم تُحل بعد، وهي: أنَّ القرآن يُقرأ ويُتلى في المقام الأول، والقرآن بعد كلّ ذلك يعني قراءة، والقراءة في هذا السياق لا تعني أبدًا قراءة كتاب في ضوء المصباح، إنَّما هي ظاهرة شفهية تتعلق بالفم والأذن، فهي شفهية بكلا المعنيين. إلا أنَّ القرآن أيضًا كتاب، فيشار إليه بـ«الكتاب» وهو كتاب المسلمين، والعلاقة الجدلية بين المفهومين تقع في صلب الدراسات الحديثة حول القرآن[١].

نجدُ هنا فرقًا مهمًّا قليلًا ما يُلحظ بين كِتَاب المسلمين وكِتَاب اليهود؛ إذ يجب على القارئ اليهودي الذي يقرأ التوراة في الشعائر اليهودية أن يقرأ النصّ المقدس المكتوب بين يديه، وأن يتابعه إن دعت الضرورة بإصبع الإشارة التوراتي، أمَّا

(١) ربما هذه الثنائيات المعتادة في التفريق بين مرحلة شفهية ومرحلة كتابية في حياة الأمم والحضارات أو في حياة الكتب والنصوص غير فعالة بالصورة الكبيرة حين ينظر بها إلى نصّ ديني، أو حين ننظر بها تحديدًا إلى القرآن؛ حيث إنّ النصوص الدينية كتبت أم لم تكتب تظلّ نصوصًا شفهية، بمعنى أنها نصوص جهرية تأتي قوتها من تلاوتها جهرًا «تعبديًّا» حيث هي إعلان دائم، و(حدث لا بد أن يُسمع)، ولعلّ هذا يتضح من بعض آي القرآن، مثل آية: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦]، لكن في ذات الوقت فالقرآن كتاب من سماته أنه يُكتَب ويُدوَّن، وهذا لأن القرآن هو بالأساس استعادة للكتاب الأصلي، القائم في «أم الكتاب» في «اللوح محفوظ»، بعد أن طالت كلمات الله المرسلة «الألواح» التحريف على يد اليهود، كما يكرّر القرآن دومًا، فهذه العلاقة التي يقيمها القرآن بينه وبين التوراة وبين ألواحها وبين اللوح المحفوظ، تقضي بكون الكتابة هي أحد سمات هذا النصّ الذي هو وبالأساس وقبل التنزيل هو مكتوب ومُدوَّن، والذي بعد تنزيله ومع الحفظ الإلهي له ينتهج كلّ ما يمكن له أن يجعله محفوظًا ومُدوَّنًا لهدي من أُرسِل إليهم حتى لا يقعوا فيما وقع فيه سابقوهم الذين ضيعوا الكتاب بعد أن جاءهم، لذا فإن التناقض ليس في القرآن كما يُعبِّر فيلد، بل هو ناتج عن قراءة القرآن عبر هذه الثنائية كأنها ثنائية صلبة، وعدم الالتفات إلى «جدلية» العلاقة بين الشفاهة والكتابة في القرآن. انظر: فهم الفهم، مدخل إلى الهرمنيوطيقا، نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادمر، عادل مصطفى، دار رؤية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧، ص٤٢.

القارئ المسلم فيجوز له، بل يستحب، أن يتلو القرآن من حفظه وعن ظهر قلب، دون أن ينظر في النصّ المكتوب؛ ولهذا وُجد في الثقافة الإسلامية ولا يزال يوجد كثير من مشاهير القراء من غير المبصرين، وقد كان طه حسين(١٨٨٩ - ١٩٧٣) -أحد كبار المثقفين العرب في القرن العشرين- أعمى منذ طفولته، وقد علّمه أبواه أو مدرسوه أن يحفظ القرآن ويتلوه عن ظهر قلب؛ لأن هذه الوظيفة كانت إحدى الوظائف القليلة المتاحة للفتية العُميان.

تشير التقديرات إلى أنَّ عشرة بالمائة من قراء القرآن في العصور الوسطى كانوا عميانًا، ومن المستبعد في التراث اليهودي -فيما أعلم- أن يكون قارئ التوراة في الشعائر اليهودية أعمى.

من المضحك أو الغريب جدًّا أن يوجد من غير المسلمين اليوم من يزدري إعجاب المسلمين بقوة النصّ القرآني وجماله البلاغي. نعم، لا يُتوقع من غير المسلمين أن يقاسموا المسلمين معتقداتهم، لا سيما فيما يتعلق بالقيم الجمالية، إلا أنَّ العداء الذي تنضح به كتابات غير المسلمين حيال فهم المسلمين لمنزلة كتابهم المقدس لا حدود له.

اتُّهم القرآن بأنه يكرر بعضه بعضًا، ويشتمل على أخطاء نحوية، وأغلاط مضحكة، وأخرى غير منطقية. كان كثير من المستشرقين، (وأنا أشير إلى المستشرقين وفقًا لمفهوم إدوارد سعيد)[١] مقتنعين بأن إعجاز القرآن يمكن

(١) إدوارد سعيد (١٩٣٥-٢٠٠٣) فلسطيني أمريكي، أستاذ اللغة الإنجليزية والأدب المقارب بجامعة كولومبيا الأمريكية، اشتهر سعيد بكتابه «الاستشراق»، والذي درس فيه الظاهرة الاستشراقية في علاقتها بالاستعمار وبالهيمنة والسلطة؛ مستخدمًا المفاهيم التي طوّرها ميشيل فوكو في كتبه «حفريات المعرفة» و«المراقبة والعقاب» عن «الخطاب» وعلاقته بالحقيقة كـ«تمثيل» وبـ«السلطة»؛ لينظر للاستشراق «كمؤسسة استعمارية» وأسلوب غربي للسيطرة على الشرق وإعادة تشكيله، والكتاب ربما غيّر خارطة الاستشراق، وعقدت بعده المؤتمرات والندوات والكتب لمحاولة استكشاف طريق الاستشراق بعد =

البرهنة على خطئه من الناحية العلمية، وأن المسلمين وقعوا في سوء فهم كبير حين زعموا أنَّ القرآن بالغ الروعة والإلهام، وأن الدراسات الاستشراقية العلمية الخالية من الأغراض يمكنها أن تبيّن وتبرهن بموضوعية أنَّ القرآن لم يكن إلهيًّا وأنه غير معجز. وعلى النقيض من ذلك، كان القرآن مملًّا وقبيحًا وغبيًّا ومثيرًا للغثيان، هل نضحك أو نبكي عندما نقرأ اليوم ما كتبه ثيودور نولدكه[1] المستشرق الألماني العظيم في القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين عندما قال محذرًا: «يجب أن ننتبه دائمًا إلى أنَّ النبي لم يكن يخاطب قومًا من الأوروبيين نالوا تعليمًا أكاديميًّا»، هذا سوء فهم عميق ومنهجي من نولدكه أن يزدري المسلمين؛ لأنهم يتأثرون تأثرًا عميقًا بقوة بلاغة القرآن المتلو لا لشيء إلا أن غير المسلمين لا يتأثرون؛ فإن ذلك ينمّ عن سوء فهم لطبيعة الأحكام الجمالية، فالطالباني الأفغاني قد لا يعجب بموسيقى يوهان سبستيان باخ واسعة الانتشار في الغرب، وللطالباني الأفغاني ما يختار من أحكام، فالذوق أمرٌ شخصي، وكذلك الذوق الجماعي، والجمال دائمًا في عين الناظر أو -في حالتنا هذه- في أذن السامع. إلا أنَّ المشكلة

= كتاب سعيد، ويعرف سعيد الاستشراق بكونه: «نمط من الإسقاط الغربي على الشرق وإرادة السيطرة عليه»، وقد تُرجِم كتاب سعيد «الاستشراق» للعربية عام ١٩٧٨، ترجمه: كمال أبو ديب، وصدر عن مؤسسة الأبحاث العربية، كما ترجمه: محمد عناني، وصدر عن دار رؤية، القاهرة، ٢٠٠٦.

(١) ثيودور نولدكه (١٨٣٦ - ١٩٣٠)، شيخ المستشرقين الألمان كما يصفه عبد الرحمن بدوي، درس عددًا من اللغات السامية: العربية، والعبرية، والسيريانية، وآرامية الكتاب المقدس، ثم درس -وهو طالب في الجامعة- الفارسية والتركية، وفي العشرين من عمره حصل على الدكتوراه عن دراسته حول «تاريخ القرآن»، وهي الدراسة التي قضى عمره في تطويرها، وقد صدر الجزء الأول من «تاريخ القرآن» في ١٩٠٩، وعمل عليه مع نولدكه تلميذه شفالي، ثم صدر الجزء الثاني عن تحرير تلميذه فيشر عام ١٩٢٠، وصدر الجزء الثالث عام ١٩٣٧ عبر تحرير تلميذه بيرجستراسر ثم برتزل. كذلك درس نولدكه «المشنا» وتفاسير الكتاب المقدس أثناء عمله معيدًا في جامعة جيتنجن، له إلى جانب كتابه الشهير «تاريخ القرآن» كتب حول اللغات السامية، منها: «في نحو العربية الفصحى»، و«أبحاث عن علم اللغات السامية»، عمل أستاذًا في جامعة كيل ثم جامعة اشتراسبورج، كتابه «تاريخ القرآن» مترجم للعربية، حيث ترجمه: جورج تامر، وصدر عن منشورات الجمل، بيروت، ٢٠٠٨.

تكمن في أنَّ العلماء من غير المسلمين كانوا ولا زالوا يميلون إلى الاعتقاد فيما يرونه بحثًا مستنيرًا وخاليًا من الغرض عن الحقائق الأكاديمية، فهل عدم تقديرهم للغة القرآن يدل على «بحث موضوعي»؟

لكن بريق اللغة القرآنية أثر على بعض العرب من غير المسلمين، يصف الروائي المصري المعاصر إدوارد الخراط (١٩٢٦ - ٢٠١٥)[١] في سيرته الذاتية مبلغ شعوره بالفخر، وهو قبطي غير مسلم عندما يطلب منه أستاذه أن يتلو سورًا من القرآن، يصف الخراط شعوره وكيف كان «يُفتن بإيقاع العبارات»، وكيف كان يغبط زملاءه المسلمين على كتابهم الرائع الذي يقوم عليه دينهم.

أمَّا الناطقون بغير العربية، فيصعب بيان ما للغة القرآن والخطاب الديني الإسلامي من سحر عليهم، أطلق نصر أبو زيد -بعضكم يعرفه أو سمع عنه، توفي في يوليو هذا العام (٢٠١٠)، رجل شجاع، تعرّض زواجه للفضّ بسبب اتهامه بالهرطقة، ورحل للبحث عن ملجأ في أوروبا واستقر به الأمر في هولندا- على سحر لغة القرآن بأنها «الفتنة العاطفية للغة العربية»، وأشار إلى أنَّه يساء استخدامها؛ إذ إن -وأنا أقتبس-«المتطرفين يعتمدون جزئيًّا على توظيف أنماط

(١) إدوارد الخراط(١٩٢٦- ٢٠١٥) روائي مصري سكندري، أهم أعماله: «حيطان عالية، ١٩٥٩»، «رامة والتنين، ١٩٨٠»، «ترابها زعفران، ١٩٨٦»، وقد ترجم عددًا من الأعمال الأدبية إلى العربية، أهمها «الحرب والسلام» للروائي الروسي تولستوي، و«الرؤى والأقنعة»، وهي قصص مختارة من الأدب العالمي، و«وردة لإيملي» للروائي الأمريكي وليام فوكنر، وله كذلك جهد نقدي برز في عدد من الكتابات أهمها: «الحساسية الجديدة، مقالات في الظاهرة القصصية»، وقد حاز عددًا من الجوائز، أهمها: جائزة نجيب محفوظ عام ١٩٩٩، وجائزة الدولة التقديرية في الآداب في نفس العام، ويعتبر الخراط بالنسبة لكثير من النقاد والروائيين والقراء أحد أصحاب الأسلوب اللغوي الخاصّ، فله قدرة فريدة على استخدام ونحت المفردات؛ مما يجعل قراءته شاقّة أحيانًا لكن ممتعة، هذا الاستخدام الخاص للغة يرجع فيما يرجع لتجريبية الخراط وذاتيته ونظرته للجمالية الخاصة للغة العربية، ورؤيته للعلاقة بين الأجناس الأدبية التي عبر عنها في تعبيره الشهير «الكتابة عبر-النوعية».

مبتذلة من العربية الفصحى، وبغض النظر عما يقولون، فإنَّ لغتهم تبدو لغة علمية مألوفة رصينة وموثوقة إلا أنها شخصية، وسحرها يؤثر على العوام ممن لا يستطيعون التحدث بهذه اللغة العالية».

أستطيع وأنا لستُ عربيًّا أن ألاحظ ذلك في كثير من البرامج الحوارية العربية على قناة الجزيرة مثلًا، عندما يستشهد عالم مسلم بالقرآن أو يتناول موضوعًا إسلاميًّا، إذ تعلو طبقة صوته، ويتباطأ نطقه ويغدو دراميًّا، كما أن استخدام صيغة التعظيم والثناء بعد ذكر اسم الله أو اسم النبي، ومن ذلك قول «محمد ﷺ»، لها وقعها في نفوس السامعين فتستدعي احترام السامعين وتحظى بقبولهم، ويستحيل حينئذ أن يقاطع أحدٌ المتكلم، كما يصعب جدًّا أن يخالفه أحد.

دعوني أنتقل إلى الجزء الثاني من المحاضرة حول دور القرآن في تاريخ اللغة العربية:

مع بداية انتشار الإسلام بين الناطقين بغير العربية أصبحت للعربية اليد الطولى في الثقافة الإسلامية، ولقيت هذه اللغة من عناية النحويين والمعجميين، فحاربوا ما أسموه أخطاء في اللغة وفسادًا في الكلام العربي وهكذا، وإذا نظرنا للأمور من الناحية التاريخية؛ لأدركنا أنه لم يكن ثمَّة مفرّ من ظهور عقيدة تقول بإعجاز القرآن العربي، وأن يشيع الرأي بسموّ العربية على غيرها من اللغات، وبالرغم من هذا البريق أصبحت العربية مع مرور الزمن تنافسها لغات أخرى كالفارسية والتركية العثمانية تدريجيًّا إلى أن حلَّت محلها. إلا أنَّ العربية ازدهرت كلغة عالمية للفقه والعقيدة والشعر والأدب، الذي بقي حيًّا في المناطق التي تنطق بالعربية في العالم الإسلامي.

عندما انتشرت الأفكار والمعتقدات القومية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في الإمبراطورية العثمانية؛ ظهرت القومية العربية، وتبين أنَّ اللغة كانت أقوى ما وحّد العرب.

درس ساطع الحصري[١] أحد كبار القوميين العرب (توفي ١٩٦٩) أعمال الفيلسوف الألماني فيشته (١٧٦٢- ١٨١٤)[٢]، وكان مما توصل إليه أنَّ القرنين

(١) ساطع الحصري (١٨٧٩ - ١٩٦٨) هو مفكر سوري، من أهم منظري القومية العربية، وقد أقام حجاجاته عن القومية على أساس اللغة والوجدان الحي المشترك، وعرف بجدالاته الشهيرة مع كلّ النزعات الإقليمية المنادية بالهوية الفرعونية والفينيقية وغيرها من هويات غير عربية، وله عدد من الكتابات المهمة في سياق التنظير للعروبة والقومية، منها: «محاضرات في نشأة الفكرة القومية»، «عروبة مصر»، وقد جمع مركز دراسات الوحدة العربية تراث الحصري القومي في كتاب بعنوان: «الأعمال القومية لساطع الحصري» في مجلدين، ونشر ضمن سلسلة التراث القومي.

(٢) فيشته (١٧٦٢- ١٨١٤)، هو يوهان غوتليب فيشته، فيلسوف ألماني ولد في رانو، يعد من تلاميذ كانط، وإن اعترض الأخير على فلسفته، هو من أوائل تيار «المثالية الألمانية»، ويلقبه حسن حنفي =

الثامن عشر والتاسع عشر شهدا تشكّل رابطة بين الألمان قبل أن تولد الدولة الألمانية، تمثلت تلك الرابطة في اللغة الألمانية.

وكان إدموند تالبوت، وهو مسيحي لبناني، يحتفي بعربية القرآن، يقول: «لم تتغير اللغة العربية طوال ألفي عام على الأقل، فهذه العربية ذاتها لا يزال المتعلمون في العالم العربي يتخذونها وسيلة للتواصل، ولا تزال القواعد النحوية ذاتها تحكم العربية كما تحكم أسجاع القرآن. يا لروعة ذلك النضوج الأبدي، الذي يعد ميزة فريدة في هذا العالم»، ويقول: «بفضل القرآن لم تفسد مبادئ العربية الصحيحة».

واليوم يحذر اللغويون من الخلط بين التغيير اللغوي والفساد اللغوي، ومع أننا لا نتفق مع إطلاق تلك الأحكام العامة، إلا أنَّها تعكس الفكرة التي حافظت على جاذبية العربية إلى يومنا هذا.

قال ساطع الحصري أنَّه يجب على العرب أن يستعملوا لغتهم المشتركة؛ لبناء دولة عربية موحدة، وهذه اللغة المشتركة يجب ألا تكون لغة اللهجات العربية، بل يجب أن تكون اللغة المكتوبة سلفًا من العربية الفصحى، وعقيدة النصّ القرآني الذي يوحّد الأمة الإسلامية قد علمنها القوميون العرب، واستعملوها لبناء ما قد يسمّى بالأمة اللغوية.

لقد كانت العربية الفصحى في رداء ما أصبح يسمّى بالعربية القياسية المعاصرة، هي الضمانة الوحيدة المستدامة للوحدة القومية العربية، ويبدو أنَّها كانت الأمل الوحيد للوحدة السياسية والاجتماعية والثقافية بين المجتمعات العربية المنقسمة على أشدّها.

= -المفكر المصري- بفيلسوف المقاومة، بسبب دوره في المقاومة الألمانية ضد الاحتلال الفرنسي، وكثير من أفكاره الرومانتيكية ورؤاه للغة كانت أساسًا للبلورة اللاحقة للقومية الألمانية، ولحسن حنفي كتاب عنه بعنوان: «فيشته، فيلسوف المقاومة»، صدر عن مركز الكتاب للنشر، القاهرة، في أكثر من طبعة.

وقد أدّى المسيحيون -بالمناسبة- دورًا مهمًّا في الجمع بين فكرة القومية العربية وبين معتقداتهم الخاصّة، فكان هدف عامة المسيحيين العرب والمسلمين العرب تهيئة العربية المكتوبة لمواءمة الحداثة دون أن يعتدوا على قوتها التراثية والتوحيدية؛ ممَّا أبقى على نقاء القواعد الأساسية للنحو والصرف في العربية الفصحى وفي عربية القرآن.

زعم المؤرخ والفقيه الألماني كارل شميت (١٨٨٨ - ١٩٨٥)[١] يومًا أنَّ معظم الأفكار الأوروبية المهمّة فيما يتعلق بالدولة الحديثة يمكن اعتبارها مفاهيم علمانية تضرب بجذورها في العقيدة المسيحية، ويمكن بالمثل القول بأن اللغة العربية القومية هي رابطة إسلامية علمانية، فبعض الأفكار الأساسية في مفردات السياسة العربية المعاصرة تصبُّ في هذا الاتجاه: أمة، سلطان، ملة، طائفة، حزب، بعث، ومصطلحات أخرى؛ فالخلفية القرآنية لهذه المفاهيم السياسية واضحة.

❁ ❁ ❁

(١) كارل شميت (١٨٨٨-١٩٨٥) فيلسوف وسياسي وقانوني ألماني، من أهم نقاد الليبرالية، وقد انضم للحزب القومي الاشتراكي النازي في ١٩٣٣، من أهم كتبه كتاب «اللاهوت السياسي»، والذي أرسى فيه تصوره للعلاقة بين اللاهوت والسياسة، حيث يعتبر أنَّ المفاهيم الأساسية التي يقوم عليها الفكر السياسي الغربي «خصوصًا مفهوم السيادة» هي مفاهيم مسيحية تمَّ علمنتها، وقد بلور عددًا من المفاهيم شديدة الأهمية في الفلسفة السياسة الحديثة، مثل: مفهوم «السياسي»، ومفهوم «الاستثناء»، ومؤخرًا تمَّ ترجمة كتابه «مفهوم السياسي»، حيث ترجمه: سومر المير محمود، وصدر عن دار مدارات، ٢٠١٧، كما تم ترجمة كتابه «اللاهوت السياسي»، ترجمه: رانيا السيلي وياسر الصاروط، وصدر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٨.

دعوني الآن أنتقل إلى آخر نقطة: الشعر العربي المعاصر والقرآن[١]:

يضطلع القرآن بدور مهمّ في الأدب العربي المعاصر، كما يلعب دورًا شديد الحيوية في الشعر العربي، ولا يتيسر لي إثبات ذلك في هذه المحاضرة، إلا أنَّني سوف أحاول قدر الطاقة.

يعدُّ محمود درويش أحد النماذج الشهيرة[٢]، وهو شاعر فلسطيني توفي عام ٢٠٠٨، وكان ذا توجه يساري علماني وأحد القوميين الفلسطينيين، ظلَّ عضوًا بالحزب الشيوعي مدى الحياة، كان درويش يتقن اللغة العبرية، وفي الوقت نفسه كان واحدًا من أعظم شعراء العرب من الفلسطينيين، ولا يمكن فهم العديد من قصائده الشعرية في حال إغفال ما تشتمل عليه من المعاني الضمنية القرآنية والإنجيلية.

عادة ما يستعين درويش بالرموز الدينية اليهودية والمسيحية والإسلامية، عند التعبير عن أغلب مشاعره الجياشة إزاء الحب والكراهية والألم والحزن، غير أنّ جميع الأديان، بالنسبة لمحمود درويش، لا سيما الإسلام والقرآن قد يعتريها التناقض، وقد استعان بتنوع أساليب القرآن في شعره، وتمثل ذلك في الفخر واليأس.

تستحضر لغة القرآن هوية يتوجب الحفاظ عليها، فهي عميقة في جوهرها تعبر عن التزام الشاعر العميق، وتبعث على الأمل، ولذا فهي جوهرة نفيسة تستوجب

(١) هذا الجزء هو الجزء الثالث وقبل الأخير وفقًا لتقسيم فيلد الذي ابتدأ به المحاضرة.

(٢) لشتيفان فيلد اهتمام واسع بالشعر العربي الحديث، وقد تُرجِم له عدد من المقالات حول بعض الشعراء العرب المعاصرين، مثل السياب ونزار قباني، انظر مقالة بعنوان «بابل هي شنغاهاي، ما هو صيني لدى بدر شاكر السياب»، ترجمة: سالمة صالح، مجلة عيون العراقية، العدد (١)، ١٩٩٥، ص٩، ومقالة بعنوان «الكتابة بحدّ السكين، تأملات في شعر نزار قباني»، ترجمة: حكمت الحاج، مجلة عيون العراقية، العدد (٦)، ١٩٩٨، ص٢١.

حمايتها. لكن الشاعر يُدرك في الوقت ذاته أنَّ الأديان المنظمة، بما في ذلك الإسلام، دخلت مرحلة النهاية؛ ولذا فقد أصبحت لغة القرآن ورسالته ودلالاته بمثابة سجن ينبغي الخلاص منه، وقيد يجب تحطيمه.

ومثال ذلك قصيدته التي أسوق جزءًا يسيرًا منها:

وَنَحْنُ نُحِبُّ الحَيَاةَ إِذَا مَا اسْتَطَعْنَا إِلَيْهَا سَبِيلا

وَنَرْقُصُ بَيْنَ شَهِيدَيْنِ نَرْفَعُ مِئْذَنَةً لِلْبَنَفْسجِ بَيْنَهُمَا أَوْ نَخِيلا

نُحِبُّ الحَيَاةَ إِذَا مَا اسْتَطَعْنَا إِلَيْهَا سَبِيلا

ترمز كلمة «نحن» في أشعار درويش إلى عموم الشعب الفلسطيني، وقد تلا درويش مثل هذه القصيدة، ولا بد أن تُتلى أغلب قصائده كي تتسم بالفاعلية، ولا شك أن هذا يحاكي القرآن في حيويته.

تشير العبارة التي دونتها بأحرف مائلة إلى آية قرآنية[1]، وعلى ما أتصور سوف يقرأ كلّ عربي مثقف الآية التي تليها، والتي تشير إلى فريضة يؤديها كلّ مسلم مرة واحدة في حياته، «واجب على كلّ الرجال» -هذا قرآن- «نحو الله، أن يأتي إلى البيت للحج»، لكن -يقول النص- (إذا كان قادرًا على إيجاد سبيل)، ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ . لكنها في قصيدة درويش دعوة علمانية للفلسطينيين كي يحبوا الحياة، لكن الفلسطيني لا يستطيع أن يحب الحياة إلا إذا نال حظَّه من العيش فيها؛ ولذلك تفيض ظلال الآية القرآنية على هذه الأبيات الشعرية فتضفي عليها لمحة من اللوعة والحزن.

سوف أسوق لكم مثالًا آخر، أكثر شهرة، إذا سنحت الفرصة، وقد سار محمود

(١) يستخدم فيلد في هذا الجزء من محاضرته شاشة عرض، وهو يشير هنا إلي المعروض عليها.

درويش في إحدى قصائده الشهيرة على النسق القرآني في سورة يوسف (١٢)، وكذا سفر التكوين الإصحاح (٣٧ - ٥٠)، وذلك في قصيدة حملت عنوان: «أنا يوسف يا أبي»، وعبارة «أنا يوسف» جزء من الآية القرآنية. لقد اتهم يوسف إخوته بمحاولة قتله، والقصيدة لا تخاطب الإسرائيليين بل الأشقاء العرب، وأولى الكلمات التي وردت في الشطر الأخير هي اقتباس حرفي من القرآن، وقد لحّن هذه القصيدة موسيقار لبناني شهير، وحازت الأغنية شهرة واسعة في جميع أرجاء العالم العربي.

وفي ملاحظتي الأخيرة، أودُّ أن أذكر شيئًا يتعلق بالقرآن بوصفه عملًا أدبيًّا. لقد أشار أمين الخولي(١)، المتوفى عام (١٩٦٦)، وقد عمل أستاذًا في جامعة القاهرة - إلى أنَّ القرآن أعظم كتاب دُوِّن بالعربية، وأنا أقتبس: «ولقد خلّد القرآنُ اللغة العربية حتى أضحى مصدر فخرها، وقد أدرك سائر العرب على اختلاف توجهاتهم الدينية تلك المنزلة الرفيعة التي حظي بها القرآن، لا فرق في ذلك بين مسيحي أو وثني أو مادي أو ملحد أو مسلم، ما داموا على بينة من عروبيتهم».

(١) أمين الخولي (١٨٩٥ - ١٩٦٦) ولد في قرية شوشاي مركز أشمون بالمنوفية، تخرج من مدرسة القضاء الشرعي وعمل قاضيًا، في عام ١٩٢٨ أصبح الخولي رئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب، ثم وكيلًا للكلية عام ١٩٤٦، أسس مجلة الأمناء في ١٩٤٤، ومجلة الأدب في عام ١٩٥٦، وقد حاول الخولي إرساء منهج جديد في دراسة القرآن، هو المنهج الأدبي أو البياني، كما أنَّه من أول دعاة التفسير الموضوعي للقرآن، وقد أولى الخولي أهمية كبيرة للمنهج الأدبي، حيث اعتبر أن القرآن هو «كتاب العربية الأكبر»، وأن كلّ قراءة له لا بد أن تنطلق من هذه النقطة نحو كلّ غاية تشريعية أو دينية أو أخلاقية، وقد قام الخولي بالدعوة إلى منهجه هذا، سواء عبر تفسيره «من هدي القرآن» الذي ألقاه عبر الراديو، أو عن طريق تلامذته والرسائل التي أشرف عليها، فقد كتبت زوجته وتلميذته بنت الشاطئ عائشة عبد الرحمن (١٩١٣ - ١٩٩٨) «التفسير البياني للقرآن»، كما أن تلميذه محمد أحمد خلف الله (١٩٠٣ - ١٩٨٩) هو صاحب أطروحة الدكتوراه «الفن القصصي في القرآن»، بالإضافة لشكري عياد (١٩٢١ - ١٩٩٩) صاحب أطروحة الماجستير «يوم الدين والحساب في القرآن»، من أهم كتبه: «مناهج التجديد في النحو والبلاغة والتفسير»، و«من هدي القرآن»، و«المجددون في الإسلام».

وهذه خطوة نبيلة وهي من الأهمية بمكان للتمييز بين القرآن بوصفه كتابًا لهداية المؤمنين وبوصفه عملًا أدبيًّا عربيًّا، فهل يمكن اعتبار القرآن عملًا أدبيًّا عالميًّا[1]؟ نعم يمكن ذلك. لكن يجب علينا أولًا أن نخطو خارج عالم اللغة العربية وعالم الثقافة الإسلامية، وعلينا ثانيًا أن نواجه الحداثة، على مدار مائة وخمسين عامًا مضت، تحوّل القرآن إلى أدب عالمي على أيدي مئات ممن ترجموه، وكثير منهم ليسوا عربًا وكثير منهم ليسوا مسلمين؛ لذا سوف تدور محاضرتي الثالثة والأخيرة حول إشكالية ترجمة ما يراه كثير من المسلمين أنَّه غير قابل للترجمة، وعثرات ذلك ونقاط ضعفه وقوته وعظمته وخطورته.

شكرًا جزيلًا لكم.

❁ ❁ ❁

(١) الجزء الأخير في محاضرة فيلد وفقًا لتقسيمه في بداية المحاضرة، يتعلق بالقرآن والأدب العالمي.

الحوار بعد المحاضرة

س: هل تعتقد أنَّ هذا النوع من آراء المتقدمين التي تتعارض مع ما استقر عليه الرأي قد يعطي أملًا لمزيد من التأويلات الأكثر تحررًا؟

شتيفان فيلد: نعم، أعتقد أنَّ العديد من العلماء العرب لا يرون بأسًا في القول بضرورة بيان خطأ الرؤية، التي يحلو لها النظر للمجتمع المسلم الأول على أنَّه بيت مكتمل لا يقبل التغيير.

هناك العديد من الآراء المختلفة، ولعلّ القرآن أحد أبرز الأمثلة على ذلك، فقد نزل القرآن فكان بمثابة كتاب للمجتمع المسلم آنذاك يجب حفظه، إلا أن هناك سبع أو عشر روايات مختلفة للقرآن، بل وأربع عشرة رواية وفقًا لبعض الآراء، واقتضت حكمة المجتمع في ذلك الوقت عدم تقديم رواية على ما عداها باعتبارها صحيحة وما سواها باطل، وجزم علماء اللغة وأصول الدين بصحة هذه الروايات كافّة، وأنَّها على ذات القدر من الأهمية، ولا شك أنَّ دراسة النصوص والاختلافات القديمة القائمة آنذاك داخل المجتمع المسلم هي عامل مساعد في القضاء على الصورة الأحادية للصرح الإسلامي، الذي نشأ في القرن السابع وبقي على حاله حتى الآن، إنها صورة خاطئة تمامًا، إلا أنها عالقة في أذهان الكثيرين.

ولكن نعم أنت محقٌّ في ذلك، فهذا قد يساعد. على سبيل المثال: مسألة إمكانية ترجمة القرآن، نجد أنَّ أبا حنيفة والشافعي لكلّ منهما رأي مختلف تمامًا حيال هذه المسألة، وهما من المرجعيات المعتمدة لدى المسلمين، ومؤسسو «مذاهب»، إلا أنَّ لكلّ واحد منهما رأيًا مختلفًا عن صاحبه، وقد ساد التعايش وقبول مختلف الآراء.

س: سيدي، من جانب نجد محمدًا يصرُّ على أنه ليس بشاعر، ومن جانب آخر نجد من عرفوا القرآن يقولون إنّ من يمكنهم قراءة القرآن في صورته العربية الأصلية وحدهم يستطيعون تذوق الجانب الشعري في القرآن، ما قولك بشأن السمة الشعرية التي يتسم بها القرآن والطبيعة الشعرية له في ضوء الأعمال الشعرية الأخرى في عصره؟

شتيفان فيلد: يحتوي القرآن على سورة تحكي عن الشعراء هي سورة الشعراء، وفيها انتقد القرآن فحول الشعر الذين عاصروا النبي محمدًا، وقد قال هؤلاء بأنَّ الوحي ليس شعرًا، ولا هو من كلام الشعراء.

ولكن القرآن بطبيعة الحال يتسم بصبغة شعرية، لكنه ليس الشعر الموزون المقفى، وقد قال العلماء بأنَّ القرآن لا هو بالشعر ولا النثر ولا السجع، وإنما هو شيء خاصّ يتفرد به، إنه دين، نوع آخر من الخطاب، غير الشعر والنثر والكلام المسجوع، فهو نوع رابع من أنواع الخطاب، أما لغير المؤمنين، فمن الواضح أنَّ القرآن ليس شعرًا بمفهوم الشعر الجاهلي، إلا أن الكثير من أجزائه مصبوغ بصبغة شعرية، بالغة التأثير والنظم، كما نرى أنَّ السجع مستعمل في القرآن، وكثيرًا ما يستعمل في كلامه القافية الشعرية ومن ثم تختتم كلّ آية منه بقافية شعرية، فلا يعقل بشأن خطاب مميّز كهذا أن يكون نثرًا، إذ إنَّه مصبوغ بصابغ شعري لكنه ليس بشعر في حدّ ذاته.

س: أثناء حديثك عن كلمة «كتاب»، أجد صعوبة في فهم معنى هذه الكلمة، وحين تمَّ ترجمتها إلى كتاب أو كتاب مقدس، هل كان المقصود من هذه الترجمة مضاهاة الكتاب المقدس الذي سبق القرآن، أم المقصود مجرد

الكتاب الذي ارتبط بالإنسانية، كما يقول دانييل ماديجان في كتابه «القرآن الذاتي الصورة»[١]؟ ماذا عن فهم المسلمين الأوائل لكلمة الكتاب؟

السؤال الثاني: نظرًا لاختلاف رأي أبي حنيفة والشافعي في مسألة إمكانية ترجمة القرآن من عدمها، وقد وقفت على هذه الآراء إلا أنني ما فهمت سبب الخلاف، هل يعود لاختلاف مكانيهما أم هو اختلاف معرفي؟ كان الشافعي -كما هو معلوم- ينادي بعدم ترجمة القرآن، في حين أنَّ أبا حنيفة أقام بعيدًا عن المدينة، فقضى معظم حياته في بغداد بالعراق، وكان ينحدر من أصول فارسية، فلربما أراد استيعاب غير العرب من أهل فارس ممن يجدون صعوبة في تحدث العربية.

السؤال الأخير: يتعلق بالعنوان الفرعي لمحاضرة اليوم «هل العربية لغة مقدسة؟»، وهذا أمرٌ بالغ الأهمية بالنسبة لي نظرًا لأنه يرتبط بما نعتبره أمرًا مقدسًا أو غير مقدس، فالأمر المقدس له دلالة ارتباطية ينبغي فهمه وتصوره بالنسبة للمجتمع الذي يعتبره أمرًا مقدسًا أو غير مقدس، أريد أن أعرف تصور المسلمين الأوائل لقدسية اللغة العربية؟

شتيفان فيلد: اسمحوا لي أن أردَّ على السؤال الثاني حول مدى إمكانية الترجمة غدًا.

ألّف دانييل ماديجان كتابًا كاملًا حول مفهوم كلمة «كتاب» في القرآن، وبالنسبة للعديد من المصطلحات الرئيسة لم يكن مفهومها واضحًا على الإطلاق، حيث يرمز إلى معانٍ شتّى، والقرآن نصّ يشتمل على تناقضات داخلية بطرق عدة،

(١) دانييل ماديجان، كاهن يسوعي معاصر، استرالي الأصل، وهو مؤسس ومدير معهد دراسات الأديان والثقافات بالجامعة الغريغورية البابوية، حاصل على دكتوراه في الدين الإسلامي من جامعة كولومبيا الأمريكية عام ١٩٩٧، وعمل كأستاذ زائر في عدد من الجامعات، كولمبيا، أنقرة، بوسطن، والكتاب المشار إليه هو «الصورة الذاتية للقرآن، الكتابة والسلطة في كتاب الإسلام المقدس، ٢٠٠١».

وأحيانًا تأتي كلمة «كتاب» بمعنى الوحي المنزل على النبي محمد، وفي سياقات أخرى هي الوحي الذي نزل قبل القرآن على أمة أخرى.

ولا شك أنَّ الجمع بين الأمرين من الصعوبة بمكان، ولن يتم ذلك الأمر إلا باستخدام أسلوب منهجي من منظور تعاقبي (دياكروني)، فلا ترمز كلمة «كتاب» إلى دلالة واحدة في سياقات القرآن كافة، كما لا تحمل كلمة «قرآن» نفس المعنى في جميع أجزاء القرآن، وفي سياقات كثيرة لن يتسنى لنا الوقوف على أجوبة شافية، وليس لدينا إلا محض ظنّ وفرضيات، ويستحيل أن أسوق لكم في جملتين خلاصة ما كتبه دانييل ماديجان في كتابه كله، لكن ينبغي لكم أن تعلموا أنَّ القرآن كتاب متناقض[١]، وهو أمرٌ تنبهت إليه التفاسير القديمة، وقد نزلت بعض الآيات في مكة غير أنها لا تساير الوضع الذي جرى في المدينة، مما أفضى إلى نسخها؛ ولذلك فإنَّ الطابع السياقي للقرآن واضح تمامًا.

بالنسبة للنقطة الأخيرة، فقد طرحت تساؤلًا ولم أجب عليه، لا بد أن نُدرك أنَّ العرب قد انتقدوا بعض الأوجه في لغتهم، كما هو حال أصحاب الأقوام الأخرى كلّ مع لغته، وبذا يتبين أن اللغة العربية ليست لغة مقدسة. وبهذا المنظور لا تكون العربية لغة مقدسة، إلا أن شأنها ومنزلتها بالنسبة للمسلمين تفوق كثيرًا ما قيل عن العهد الجديد الذي دُوِّن باليونانية، أعني أنه من المثير أن يُدَوّن باليونانية، وقد يتكلم أحد عن السبب وراء تدوينه باليونانية، ومن قام على تدوينه، وبأي

(١) بالطبع كلام فيلد هنا عن تناقض القرآن كلام شديد الغرابة، فكما ذكرنا سابقًا في التعليق على قضية علاقة الشفاهة بالكتابة في القرآن، فإنّ التناقض لا يكمن في القرآن؛ بل يكمن في محاولة إخضاعه لأنساق خاصة بدلًا من محاولة اكتشاف نسقه الخاصّ ومراكزه الدلالية التي بالرجوع إليها كمرتكزات لتفسيره ينتهي أي تناقض ظاهري، وهذا ما تنبه إليه المفسرون القدامى الذين كانوا يردّون متشابهه لمحكمه ويقيدون مطلقاته بمقيداته وينسخون منسوخه بناسخه وغيرها من أدوات منهجية تزيل بمنطق النصّ ذاته ما يُظن من تعارض، على عكس ما يقول فيلد بالطبع عن التفاسير القديمة.

طريقة تُكتب اللغة اليونانية، إلا أنَّ وضع اللغة اليونانية بالنسبة للمسيحي العادي لا يمكن أن يضاهي منزلة اللغة العربية في نظر المسلم، فهنا ثمَّة اختلاف ظاهر ويتوقف هذا بطبيعة الحال على الزمان والجغرافيا، فلا يمكن لأحد أن يدّعي احتكاره صورة واحدة للإسلام منذ القرن السابع وحتى الآن، وما جرى في مكة والمدينة انتهاء بما جرى في إندونيسيا أو ألمانيا أو للدول الأوربية التي اعتنقت الإسلام، لكن قطعًا تمتاز بجودة أعلى، وعليه يمكن القول أنَّ قدسية اللغة العربية مسألة ذات قدر عظيم بالنسبة للإسلام مقارنة بنصوص العهد الجديد المكتوبة باليونانية، وقد دوّنت باليونانية، وربما دونت باللاتينية أو لغة أخرى، وربما كانت العبرية هي النظير الذي يحظى بنفس القدر؛ إذ تحظى بأهمية كبيرة لدى اليهود تفوق أهمية اللغة اليونانية، التي كُتب بها العهد القديم لدى الشخص المسيحي العادي.

س: أول ما يطالعنا في القرآن ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾، وقد حاولت منذ أن كنت في المرحلة الثانوية أن أخمن معني (الم)، وحتى حينما أتيت إلى هنا كطالب ما زالت الكلمة عالقة في ذهني؛ لذا شرعت في البحث عن أصلها في اللغة العربية، وأريد أن أفهم دلالات كلمة (الم) في اللغات التصويرية والرمزية المختلفة، قد يكون لهذه الكلمة مدلول معين، ولم أستطع أن أصل إلى أي معنى لها، فهل صادفت من فعل شيئًا في هذا الشأن؟

شتيفان فيلد: أجل، هناك كثيرون تعرضوا لهذه المسألة، ونوقشت مرات لا تعدّ ولا تحصى، ونتيجة النقاش: لا أحد يعرف المقصود بها على وجه التحديد، لكن اسمح لي أن أضيف شيئًا هنا بخصوص كلمة (الم)، تُعرف هذه الكلمة وما شابهها بـ«الحروف المقطعة»، ولا أحد يعرف شيئًا عنها، ولم ترد هذه الأحرف في

السورة الثانية فحسب وإنما ذكرت في مواضع عديدة من القرآن، والأمر الملفت للنظر أنَّ السورة الثانية قد بدأت بآية ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ ، وكما هو معلوم أن أول سورة بمثابة فاتحة للقرآن إلا أنها تأتي بنسق مختلف.

لذا يمكن القول: إنَّ أول سورة فعلية يبتدئ بها القرآن هي السورة الثانية منه، يا له من استهلال بديع ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾؛ إذ بداخله قضية شائكة، وقد يتوقع المرء أن تكون الإشارة بهذا بدلًا من ذلك. إذًا، هناك من الأسرار ما يتجاوز كلمة (الم)، ولا أظن أن هناك من يحيط بهذه الأسرار، وأنا على يقين أنه لن يتسنى لأحد الوقوف على مدلول هذه الكلمات.